

التفسير المختصر - سورة آل عمران (٠٣) - الدرس (٤-٦) : تفسير الآية ٩ ، ممن تأخذ النصيحة ؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٤-٠٤-١٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.
أيها الإخوة الكرام ؛ ورد في الحديث الشريف، عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((يُوْشِكُ النَّامُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكْلَةُ إِلَى فَصْعَتِهَا فَقَالَ قَائِلٌ وَمِنْ قِلَّةِ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ قَالَ بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غَتَاءٌ كَغَتَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ فَقَالَ قَائِلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ قَالَ حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ))

(رواه أبو داود)

أما معنى كثير، فالمسلمون اليوم يعدون ألفاً ومئتي مليون، يعني خمس سكان العالم.
((فَقَالَ قَائِلٌ وَمِنْ قِلَّةِ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ ؟ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ فَقَالَ قَائِلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ قَالَ حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ))

ذكرت هذا الحديث تمهيداً لقوله تعالى في الآية التاسعة والأربعين بعد المئة من سورة آل عمران، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١)﴾

يعني أن الإنسان حينما يطيع رجلاً غير مؤمن يتردى في الهاوية، وقد قال تعالى:

﴿وَلَا تَطْعَمَنْ أَعْفُنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨)﴾

(سورة الكهف: ٢٨)

فهذا خطأ كبير كبير، والخطأ الفاحش أن تستصح إنساناً مقطوعاً عن الله عز وجل:

﴿وَلَا تَطْعَمَنْ أَعْفُنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨)﴾

والآية المقابلة:

﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلِيَّ ثُمَّ إِلَيَّ﴾

(سورة لقمان: ١٥)

إذاً في شأن معاشه، وشأن تجارته، وشأن تربيته أولاده، وشأن تخطيب بناته، لا ينبغي أن يستصح إنساناً بعيداً عن الله عز وجل، والآية الدقيقة أيها الإخوة ؛ وهي قوله تعالى:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾

(سورة النساء: ١٠١)

يروى أن بعض اليهود آلمتهم هذه المحبة التي بين الأوس والخزرج، فأرسل أحدهم غلاماً له، بقصيدة قيلت في الجاهلية ليثير بينهم الأحقاد، والأنصار حديثو عهدٍ بالإسلام، فلما سمعوا هذه القصيدة تذكروا بعض ما كان بينهم وبين إخوانهم من عداوةٍ وبغضاء، فكادت تنتشب فتنة، فما كان من النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن خرج وقال: أفعلون هذا وأنا بين أظهركم، فنزل قوله تعالى:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١)﴾

حقاً أن نجتمع، أن نتحابب، أن نتوادد، أن نكون بعضنا دعماً لبعض، أن نكون كالبنين المرصوص، أن نكون كالصف الواحد، أن نكون كتلة واحدة، كيف السبيل إليها؟ يقولون: الآلام مشتركة، والآمال مشتركة، واللغة مشتركة، والتاريخ مشترك، حوالي اثني عشر شيئاً مشتركاً، ومع ذلك هناك خصومات، وهناك عداوات، وهناك تشتت، وتشرذم، وتبعثر، كيف السبيل إلى وحدة القلوب؟ قال تعالى:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾

(سورة النساء: ١٠٣)

هذه الآية نقرأها كثيراً، وقلماً نقف عند معانيها الدقيقة، ما لم يكن هناك إيمانٌ يجمعنا، ما لم يكن هناك منهجٌ يجمعنا، ما لم يكن هناك كتاب يجمعنا، ما لم تكن هناك سنةٌ تجمعنا، ما لم يكن هناك هدف يجمعنا، ما لم تكن وسائل لهذا الهدف تجمعنا، إذاً فلن نجتمع، ولن نكون كتلةً واحدة، ولن نكون صفاً واحداً، ولن نكون يداً واحدةً على أعدائنا، إلا إذا أخذنا بقوله سبحانه:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾

تذكروا السبحة؛ هل تجتمع حباتها من دون خيطٍ بداخلها؟ الخيط الذي بداخل السبحة هو الذي يجمعها، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ

قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾

إخواننا الكرام؛ الأنصار رضي الله عنهم، حينما وزع النبي عليه الصلاة والسلام الغنائم في معركة حنين، لم يعطهم لثقتهم لأنهم مؤمنون، فألف بهذه الغنائم قلوب أناس ضعاف، فجاءه زعيم الأنصار سيدنا سعد بن عبادته وقال له: يا رسول الله إن قومي وجدوا عليك في أنفسهم، في شأن هذا الفء الذي وزعته بين أناس كثيرين، ولم تعط منه الأنصار، فقال: يا سعد أين أنت من قومك؟ فقال سيدنا سعد: ما أنا إلا من قومي، أنا واحد منهم، يعني متألم مثلهم، فقال: اجمع لي قومك، فجمع سعد قومه الأنصار إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وعندئذ وقف النبي صلى الله

عليه وسلم وقال: يا معشر الأنصار مقالةً بلغتني عنكم، وجدةً وجدتموها عليّ في أنفسكم، من أجل لعاعة تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكنتكم لإسلامكم، يا معشر الأنصار - الآن دققوا، فالنبي صلى الله عليه وسلم حينما انتقده الأنصار كان في أعلى درجات قوته، فَتَحَ مكة، وانتهت معركة حنين وانتصر عليهم، وصار الجيش الذي تحت إمرته أقوى قوةً ضاربةً في الجزيرة، والنبي زعيم هذه الأمة، ونبيها، ورسولها، وقائدها، وفئةً من الأنصار غمزت، وانتقدت، وقالت: يعني نحن أولى، لم نأخذ شيئاً - فقال صلى الله عليه وسلم: يا معشر الأنصار، أما إنكم لو قُلتُم فاصدُقتُم ولصدقتم به، أتيتنا مكذباً فصدقناك، وطريداً فأويناك، ومخدولاً فنصرناك، والنبي صلى الله عليه وسلم، كان بإمكانه أن يلغي وجودهم، وكان بإمكانه أن يهدر كرامتهم، وكان بإمكانه أن يعاتبهم لمصلحتهم، لم يفعل لا هذا ولا هذا ولا ذلك، ولكن جمعهم - دققوا مرة ثانية - وذكرهم بفضلهم عليه، وهو في أعلى درجات القوة، قال: يا معشر الأنصار ألم تكونوا ضللاً فهداكم الله بي، وعالةً فأغناكم الله، وأعداء فألف بين قلوبكم، إذا ما الذي يؤلف بين القلوب؟ إنه الدين، وما الذي يفرق؟ المصالح الدنيوية، الدنيا تفرق والدين يجمع، والمال يفرق والحق يجمع، والمعصية تفرق والطاعة تجمع، فإذا أردت لهذه الأمة أن يجتمع أمرها فعليها أن تأتمر بقوله تعالى:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾

ما لم تكن هناك عقيدة واحدة، وكتاب واحد، وسنة واحدة، وهدف واحد، ومنطلق واحد، ووسائل واحدة، فالقلوب لا تجتمع.

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾

إذاً، لو أنفقت ما في الأرض جميعاً، ما ألفت بين قلوبهم، لو أنفقت المال جزافاً، لو أعطيت مساعدات، لو أعطيت بيوتاً للناس مجاناً، ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم. إذا تأليف القلوب شيءٌ يخلقه الله في القلوب، الذي يجمعنا هو دين الله، والشيء الخطير أن الله سمى الفرقة والتباذ والبغضاء والعداوة والطعن والتدابير سماها كفراً، قال تعالى:

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾

كيف تكفرون؟ وهذه الآية نزلت في هذه القصة، يعني أسباب نزول الآية تكشف جوانبها الدقيقة، إذاً هذا الذي يفرق بين المسلمين ويطعن ببعضهم، وينشئ بينهم العداوة والبغضاء، هذا وقع بالكفر وهو لا يدري، هذا الذي يظن أن الله له، وأن الجنة له، وما سواه باطل، هذا إنسان منعزل، هذا إنسان لا يعرف حقيقة هذا الدين.

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾

أيها الإخوة الكرام؛ هذه الآيات في سورة آل عمران تتلوها آيات بعد قليل يقول الله عز وجل:

﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾

- الآية الأولى -

وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بحبل الله فقد هُديَ إلى صراط مستقيم يأبها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون وهناك عداوة، وهناك بغضاء.

﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾

عن حبل الله.

﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾

هذه المحبة التي تراها بينك وبين أخيك، هذه من خلق الله، هذه علامة الإيمان. فاسمع إلى الحديث القدسي:

((عَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ قَالَ دَخَلْتُ مَسْجِدَ دِمَشْقَ الشَّامِ فَإِذَا أَنَا بَعْتِي بَرَّاقَ الثَّنَائِيَا وَإِذَا النَّاسُ حَوْلَهُ إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَسْنَدُوهُ إِلَيْهِ وَصَدَرُوا عَنْ رَأْيِهِ فَسَأَلْتُ عَنْهُ فَقِيلَ هَذَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ هَجَرْتُ فَوَجَدْتُ قَدْ سَبَقَنِي بِالْهَجِيرِ وَقَالَ إِسْحَاقُ بِالْتَهْجِيرِ وَوَجَدْتُهُ يُصَلِّي فَاَنْتَظَرْتُهُ حَتَّى إِذَا قَضَى صَلَاتَهُ جَنَّتُهُ مِنْ قَبْلِ وَجْهِهِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ لَهُ وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ اللَّهُ فَقُلْتُ اللَّهُ فَقَالَ اللَّهُ فَقُلْتُ اللَّهُ فَأَخَذَ بِحُبُوبَةِ رِدَائِي فَجَبَذَنِي إِلَيْهِ وَقَالَ أَبَشِّرْ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَجِبَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ))

(رواه أحمد)

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ((الْمُتَحَابُّونَ فِيَّ جَلَالِي لَهُمْ مَنَابِرٌ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ))

(رواه الترمذي)

يعني أرقى علاقة بين شخصين علاقة الإيمان، الحب في الله، والبغض في الله، فنسأل الله أن يؤلّف بين قلوب هذه الأمة على الخير.

والحمد لله رب العالمين